المحور الثالث: وسائل الإعلام والاتصال والتغير الاجتماعي

المحاضرة التاسعة: دور وسائل الإعلام وتأثيرها في التغير الاجتماعي

اهتمت الكثير من الأبحاث والدراسات بفحص العلاقة بين وسائل الإعلام الجماهيرية وتكنولوجيا الاتصال الحديثة وعمليات التغير الاجتماعي والثقافي، وذلك بالنظر إلى قوة هذه الوسائل وأهميتها المتزايدة في مختلف مجالات الحياة وتأثيراتها الظاهرة والكامنة على الفرد والمجتمع، ففي عام 1860 استعرض الباحث جوزيف كلابر اغلب الأبحاث التي تناولت تأثير الاتصال بالجماهيري وخرج بعدة تعميمات منها:

أ- أن وسائل الإعلام ليست عادة السبب الكافي أو الضروري لإحداث التأثير في الجماهير ولكنها تعمل مع ومن خلال بعض العناصر والمؤثرات الوسيطة

ب- أن طبيعة العناصر الوسيطة تجعلها تعمل على جعل وسائل الاتصال عنصرا مساعدا وليست السبب الوحيد في تدعيم أو تقوية الاتجاهات الموجودة.

ج- في الأحوال الخاصة التي تساعد وسائل الاتصال فيها على إحداث التغيير تسود حالتين:

- أن العوامل الوسيطة لا تعمل وبذا يصبح تأثير الاتصال فيها مباشرا

- أن العوامل الوسيطة التي تميل عادة إلى تدعيم وتقوية الاتجاهات الموجودة تساعد هي نفسها على إحداث التغيير وفي سياق تحليل العلاقة بين وسائل الإعلام والمجتمع أشار مارشال ماكلوهان وقبله هارولد انيس الذين أعطيا في أعمالهما دورا رئيسا للوسائل في عملية الاتصال بل وحتى في تنظيم المجتمع كله، ولقد ركزا في تحليلهما على التكنولوجيا المستعملة في وسيلة الاتصال المسيطرة في كل مرحلة تاريخية معينة وبشكل عام، هناك أسلوبان أو طريقتان للنظر إلى وسائل الإعلام، من حيث:

- أنها وسائل لنشر المعلومات والترفيه.

- أو أنها جزء من سلسلة التطور التكنولوجي.

فإذا نظرنا إليها على أنها وسيلة لنشر المعلومات والترفيه والتعليم، فنحن نهتم أكثر بمضمونها وطريقة استخدامها والهدف من ذلك الاستخدام، وإذا نظرنا إليها كجزء من العملية التكنولوجية التي يحتمل أن تغير وجه المجتمع كله شأنه في ذلك شأن التطورات الفنية الأخرى، فنحن حينئذ نهتم بتأثيرها بصرف النظر عن مضمونها.

ومن الواضح أن لوسائل الإعلام المقدرة على تشكيل الآراء والاتجاهات وتعديلها، بطرق وأساليب متنوعة منها الإقناع بمختلف أشكاله والاستمالات وغيرها، كما أنها تتدخل في صلب العمليات الاجتماعية لتشكل أجزاء منها أو تعيد تشكيلها، هذه المقدرة الواسعة المتأتية من القدرة على النشر والبث والإذاعة على نطاق جماهيري واسع للحقائق والمعلومات والمعارف ومختلف أشكال الثقافة، حدا بالكثير من الدول إلى إدراجها ضمن الأدوات الكفيلة والمصاحبة لعمليات تحديث المجتمعات

وتنميتها، أو تغييرها من الحالة التقليدية إلى حالة الحداثة والعصرنة، من خلال ترويجها لنماذج فكرية وسلوكية معينة تسهم في بناء الوعي وتشكيل شخصية الإنسان الجديد.

وسائل الإعلام والتغير في الآراء والاتجاهات: مستويات التغير الاجتماعي

أولا–المستوى الفردي: لكل فرد عالم معرفي خاص به أو له خريطة معرفية تتألف من المعتقدات، القيم، الاتجاهات، الآراء تتضمن ما هو شخصي يميزه عن الآخرين ، وما هو عام يتقاسمه مع الجماعة الثقافية التي ينتمي إليها، تنمو هذه الخارطة من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية والخبرة الشخصية التي يكتسبها جراء التفاعل البيني مع الآخرين والبيئة المحيطة وتتوسع من خلال المؤثرات والتجارب الجديدة التي تطرأ عليه، لتحدد له في النهاية نوع الاستجابات ردود الفعل السلوكية في المواقف الاجتماعية المختلفة، هذا يعنى أن المعلومات والمعارف هي المادة الأساسية التي من خلالها يحدد معالم طريقه الاجتماعي، وعليه فالزيادة فيها إضافة وتعديلا وتحديثا تؤدي إلى تغيير طبيعة مواقفه ونهجه وهكذا يحدث التغير الثقافي على المستوى الفردي.

أ–المعتقدات: تنقسم المعتقدات إلى ثلاثة أنواع: وصفية وهي التي توصف بالصحة أو الزيف، وتقيمية أي التي يوصف على أساسها موضوع الاعتقاد بالحسن أو القبح، وآمرة أو ناهية حيث يحكم بمقتضاها الفرد، ومن المعلوم أن التغير في المعتقدات خصوصا الدينية شيء صعب إن لم يكن مستحيلا في أغلب الأحيان، بسبب قوة الاعتقاد فيه من جهة، وبسبب ما يترتب عن الرد أو الخروج منه ذلك لأن التدين عنصر أساسي في تكوين الإنسان والحس الديني إنما يكون في أعماق كل قلب بشري بل هو يدخل في صميم ماهية الإنسان مثله في ذلك مثل العقل.

ب–القيم: تعد القيم (حقائق تعبر عن التركيب الاجتماعي) يتم الحكم بموجبها على الأشياء والظواهر الوسائل والغايات على أنها مرغوبة أو غير مرغوبة، صحيحة /خاطئة، ويتم على ضوئها تقويم الأشخاص والأفعال وتنطوي على ثلاثة عناصر، "العنصر المعرفي" أو ما عبر عنه كلاكهون تصور المرغوب أي أن الشخص الذي يتبنى قيمة ما فهو يعني أنه يعرف الطريق الصحيح للسلوك، ثانيا العنصر العاطفي وهي جملة المشاعر والأحاسيس التي يتبناها الفرد تجاه المواقف والأشخاص، وأخيرا "العنصر السلوكي" وهو الجانب المظهري للعنصرين السابقين وانعكاس لهما،أي هو الترجمة الفعلية لما يتبناه الفرد من آراء واتجاهات ومعتقدات تجاه الذات والآخر.

ج– الاتجاهات: تعرف الاتجاهات بأنها: الأنظمة الإيجابية أو السلبية الثابتة للتقويم وهي المشاعر والانفعالات والاستعدادات للعمل مع أو ضد أهداف أو أشياء اجتماعية معينة أي أن الإنسان تتشكل لديه خلفية أو صورة ذهنية نتيجة الخبرة الذاتية والجمعية تمده بالقواعد اللازمة للحكم على الأشياء ، هذه القواعد تهيئه لاتخاذ وضع معين أو قرار تجاه الموضوع أو الموقف فهو كما يحدد البورت (حالة من الاستعداد العقلي والعصبي التي تسبب تأثيرا موجها أو دينامكيا على استجابات الفرد، وأخيرا عادة ما يتم التعبير عن الاتجاهات في شكل سلوك علني أو ضمني، فهي طاقة محركة للسلوك، وتعد الاتجاهات أكثر قابلية

للتغير من القيم، ذلك أنها تتميز بالطابع الوسائلي، أما القيم فهي حالة غائية أو هدف يسعى إليه الفرد، ويقوم الاتجاه بالخصائص والوظائف الآتية:

- أنه ينظم عملية تفكير الفرد بحيث يجعلها نمطية تجاه موقف أو موضوع ما-

ينظم ويوجه انفعالات الفرد أو مجمل أحاسيسه ومشاعره نحو ظاهرة ما.

- ينشط حركة الفرد في المواقف الاجتماعية التي يمر بها.

- يساعده على أن يرى نفسه ومن حوله بنظرة واضحة بما يؤهله لتقويم خبراته السابقة والحالية فيختار أفضلها ويكررها.

- يدرب الاتجاه الفرد على كيفية اتخاذ القرارات السليمة، بما يكفل الثبات الانفعالي والاستقرار النفسي اللذين يشكلان له سلوكياته السوية.

- يساعده على اكتساب طرق التعلم الجيد سواء أكتسبها عن طريق الخبرة أو التقليد أو التلقين بما يؤهله لتكرار خبراته السارة وتجنب خبراته الضارة.

- يعلمه كيفية الاستفادة من الموارد المتاحة في بيئته لإشباع حاجاته وكيفية الاختيار الجيد من العوامل الثقافية التي تقع في نطاق قدرته

- يدربه على التمييز بين رؤيته الذاتية للأشياء والرؤية العامة أي رؤية الجماعة

- يدربه على كيفية التمييز بين ما يمكن التعبير والإفصاح عنه للغير وبين ما يجب إخفاؤه

- يشجع الفرد على التكيف والترابط مع غيره كما يبلور العلاقة بينه وبين محيطه الاجتماعي

مكونات الاتجاه: تتكون الاتجاهات من ثلاث عناصر أساسية مترابطة فيما بينها على النحو الآتي:

المكون المعرفي: يتضمن جملة التصورات والأفكار والمعارف والمعلومات التي اكتسبها الفرد من مصادر مختلفة، المدرسة، الأسرة، المسجد، وسائل الإعلام المختلفة ...أي خبرته السابقة، تهيئه وتعده للاستجابة مع مثيرات هذا الموضوع، فالمعارف أو الصور الذهنية التي يحملها الفرد عن الموضوع أو الموقف تشكل نقطة ارتكاز أساسية لتفاعله

المكون الوجداني: وهي جملة المشاعر والأحاسيس إما إيجابية مثل :الحب، المودة، التعاطف، القبول... أو سلبية مثل: الكراهية، البغض الاحتقار، الخوف....

المكون السلوكي: السلوك هو محصلة التفاعل بين المكون المعرفي (العقلي) والمكون الوجداني (القلبي)، أي هو الترجمة النهائية والعملية لاتجاه الفرد يعبر عنه في شكل ملفوظات لغوية حركات جسمانية إيحاءات، وغيرها من الأشكال التعبيرية غير أن بعض الأبحاث المعاصرة تنظر إلى الاتجاهات «بوصفها مشاعر الشخص نحو الموضوع، والى الاعتقادات والمقاصد السلوكية والسلوك بوصفها مفاهيم مستقلة رغم ارتباطها بمفهوم الاتجاه

د–الآراء: تستخدم كلمة "الرأي" لوصف التعبير عن شيء مختلف أو متميز عن المعرفة الثابتة، فالرأي هو التعبير عن اتجاه نحو أمر جدلي أو قضية– بعكس الحقائق التي تعني القبول العام – ويدور الاختلاف والتناقض حول مسائل جدلية أي يوجد فيها

مجال لإبداء الرأي فالرأي هو الموقف الاختياري الذي يتخذه الفرد إزاء مسألة أو قضية متنازع عليها قابلة للجدل، وتعني كلمة "رأي" الاعتقاد أو الاقتناع أو وجهة نظر يؤمن الفرد بصحتها وإمكانية تحقيقها، إلا أن هذا الاعتقاد أو الاقتناع لا يصل في صحته أو إمكانيات تحقيقه إلى مرتبة الحقيقة أو المعرفة عن يقين إذ يجب التفرقة بين الرأي والحقيقة، كما أنه يفوق مجرد الانطباع أو الاندفاع لدى الفرد ويتجاوزه

تغير الاتجاهات والآراء: على الرغم من أن الاتجاهات تتميز بالثبات النسبي وصعوبة تغييرها بدرجة أقل من القيم والمعتقدات، وبدرجة أشد من الآراء إلا أنها تخضع بدورها للتغير والتبدل، إما بشكل جزئي أو بصفة كلية، ذلك أن الإنسان تواجهه عادة الكثير من المستحدثات والمواقف أو القضايا الجديدة التي يكون عليه اتخاذ موقف واضح تجاهها، فالموضوعات الجديدة التي يفتقر فيها إلى المعلومات الكافية لتكوين آراء واضحة أو اتجاهات ثابتة عادة ما تكون الدافع وراء هذا التغير الذي يأخذ أحد الاحتمالات الثلاثة.

- قبول هذه السمة بعد أخذ ورد:حيث تقبل الأفكار والعادات الثقافية الجديدة وتضاف إلى النسق الكلي، بعد المناقشات الواسعة للموضوع

- رفض السمة بعد أخذ ورد: أحيانا تتعارض السمات الجديدة مع النسق القيمي العام للجماعة فيحدث أن يتم رفضها، وعدم الاعتراف بها.

- أخيرا يقبل بعض الأفراد السمات الجديدة ويتبنونها، بينما يرفضها البعض الآخر: وقد ينتصر الفريق الأول وتسود قيمهم الجديدة عند الكل وعادة ما يشكل هؤلاء ما يعرف بالرواد، الذين ينجحون في تثبيت أنماط فكرية وسلوكية جديدة داخل الجماعة، وقد يفشلون بفعل المعارضة القوية والشديدة من المحافظين الذين يرفضون التجديدات أو أنماط السلوك الجديد، وغالبا ما يكون الرفض قويا إذا تعارضت القيم الجديدة مع المعتقدات والقيم الجماعية خصوصا إذا كانت القيم الدينية والوطنية سندا قويا لهم.

شكل الاحتمال الثالث نقطة محورية من محاور البحث النفسي والاجتماعي والاتصالي حول محددات القبول والرفض والعوامل المؤثرة في ذلك، و توصلت معظم الأبحاث إلى أن الآراء «تتغير وتتأثر وتنمو أكثر وأكثر حول الموضوعات والمواقف التي يفتقر الإنسان إلى المعلومات حولها وبالتالي لا يكون رأيا منظما بالنسبة لها أو اتجاها ثابتا، وأنها تكون أكثر قابلية للتغير إذا كانت تدور حول القضايا العامة غير المحددة مقارنة بالقضايا المحددة والجوهرية، أما عن طبيعة العلاقة بين الاتصال والتغير الاجتماعي فيمكن القول أنها محدودة بظروف الجماعات والانتماءات الجماعية للفرد، وهنا يكون من المتوقع أن مضمون الاتصال إذا لاقى قبولا واستجابة من قبل الجماعات فإنه سيكون أكثر فاعلية في التأثير على أعضاء هذه الجماعات، أي أن الأمر يتطلب الموافقة الجماعية أو ملائمة مضمون الاتصال لبناء الجماعة وقيمها ومعاييرها، لكن هذه النظرة الجماعية قد تمثل موقفا محافظا من جهة كما أنها قد تؤخذ بوصفها حتمية جماعية، ولا نستطيع وفقا لها أن نفسر مبدأ التغير الاجتماعي ذاته طالما أن كل فرد لن يغير من قيمه واتجاهاته إلا بعد موافقة جماعاته على ذلك، لكن الأمر ليس كذلك فليس كل الأفراد على درجة متساوية في

الولاء لجماعتهم وقيمها ومعاييرها، وهنا قد يقابلوا بعدة مواقف من قبل باقي أعضاء الجماعة تتراوح بين الاستهجان والاستحسان وقد يتبعهم البعض الأخر حتى تصبح الأنماط السلوكية الجديدة هي الأنماط السلوكية الأكثر توترا، بمعنى تشيع المعايير الجماعية الجديدة وهنا يحدث التغير الاجتماعي

ثانيا – التغير على المستوى الجمعي: هناك علاقة جذب بين الفرد والمجتمع أيهما يؤثر في الآخر، هل التغير على مستوى قيم واتجاهات وآراء الأفراد يكون المقدمة الضرورية التي ينتج عنها تغير قيم المجتمع بعد ذلك ؟ أم أن المجتمع ونتيجة لما يطرأ عليه من تعديلات وخطط يفرض قيمه الجديدة على الأفراد؟ ومثال ذلك الخطط التنموية وما يصاحبها، أو التحول إلى اقتصاد السوق ...الخ.

إن علاقة الجذب هذه غالبا ما يطبعها التشنج، بفعل رفض المجتمع لبعض القيم الجديدة ومحاربته لها لسبب أو لأخر، وطبعا يقابله إصرار وتأكيد من طرف الأفراد وقد يبلغ هذا التشنج حد التطرف والعنف أو الانحراف أو غيرها من الأشكال التعبيرية، وغالبا ما يكون هذا الحال في مرحلة الشباب أو ما يعرف بالمرحلة الحرجة لنمو الاتجاهات.

وبالمقابل يرفض الأفراد التوجهات الجديدة المفروضة بالقوة المادية والرمزية للمجتمع، فليس كل الأفراد على درجة واحدة من الولاء أو الانصياع للمجتمع، وقد يحدث العكس حيث«تسري التغيرات في النسيج الثقافي والاجتماعي دون تشنجات تذكر، فيطرح أو يتبنى الأفراد أفكارا جديدة تتوسع أفقيا وعموديا إلى غاية تبنيها من طرف الأغلبية، لتنتج لاحقا نمط الحياة الخاص بتلك الجماعة، وبقدر ما يجسد النمط الثقافي طريقة الحياة يحمل انتشاره أو انحساره قيما إضافية تتعلق بترتيب المواقع الاجتماعية، وغالبا ما لا تقبل الثقافة المجتمعية العناصر الثقافية الجديدة الوافدة خصوصا إذا كانت متعارضة مع قيمها تعارضا أساسيا لا يمكن تجاوزه (الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر مع الثقافة الفرنسية)حيث تدفع العادات والتقاليد والأعراف وأنماط حياة الجماعة إلى زيادة التمسك بها في مواجهة الجديد، إذا كانت هذه العناصر مازالت تؤدي وظائفها بكفاءة كاملة ...وقد يحدث أن يظهر أسلوب اجتماعي أو أخلاقي جديد مناقض تماما لتقليد أو قيمة قديمة بحيث لا يمكن الجمع بينهما ... ولا بد من سقوط أحدهما إذا تغلب الآخر ... فإذا كانت التيارات الوافدة هي المغلوبة فإنها ستترك بصماتها وآثار صراعها على جبهة الثقافة القديمة المنتصرة ... «وإذا كانت الغلبة للتيارات الوافدة، فإن الثقافة القديمة المتنحية لن تترك آثارها بل إن تأثير المعايشة الطويلة على علاقات الأفراد والجماعات سوف يظل صداها مدة طويلة مقدار ما كان لهذه الثقافة المتنحية من انتشار وذيوع في أعماق ووجدان هذه الجماهير.

تؤدي حالة الصراع هذه إلى بروز ما يعرف "بالفجوة الحضارية" بين النمطين الثقافيين وتزداد اتساعا،بازدياد تمسك كل طرف بعناصره الثقافية، إذ يصعب التخلي عنها خصوصا في حال الثقافة التقليدية التي نشأت في ظروف تاريخية تحيلها إلى ميراث يضفي عليها طابع القداسة أحيانا، وتلعب القيم دور المحكم والفيصل في هذا الصراع باعتبارها النسق الذي يتم على ضوئه

الحكم على الأشياء والقضايا المختلفة والمثير أن القيم بدورها قد لا تكون محل إجماع وتنسحب عليها جدليات الصراع ذاتها. وفي حالة التعادل الوظيفي بين العناصر الثقافية القديمة والعناصر الثقافية الجديدة ينعكس ذلك داخل الجهاز النفسي للشخصية ويظهر في الحياة الاجتماعية على شكل سلوك اجتماعي يقرره التوازن بين مضامين العناصر الثقافية في وحدتها وانقسامها، فإذا كانت العناصر الثقافية داخل الوحدة الثقافية متعادلة في الوظائف والوجهة الثقافية فإن السلوك يظهر بشكل سوي...أما إذا كانت العناصر الثقافية متعادلة في الشكل والوجهة الثقافية ومختلفة في المحتوى أو المضامين، فإن الأسلوب الفردي الناتج عن هذه العناصر يمتاز بالازدواجية والمفارقة في الكثير من الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية والخلقية.